مذكِّرة شاب ثلاثيني

مذكّرة شاب ثلاثيني

مذكِّرة شاب ثلاثيني

"قصة قصيرة"

تأليف : بثينة بولعيش

بتاريخ

٢٠٢٠ / ١٢ / ٢٤

إهداء :
لكل من سيقرأ هذه القصة
..

إهداء آخر :

إلى ذاك الذي استوطن القلب

..

الجزء الأول

مذكرتي ..

يبدو غريبا أن يكون لشاب مذكرة خاصة به، لكني وصلت لمرحلة صرت أحتاجها أكثر من حاجتي لمحادثة رفاقي ومن هم أقراني بنفس عمري، سأروي لك ما لم أستطع قوله يوما لأحد، سأحكي لك عن ضربتي القاضية التي أسقطتني أسفل السافلين حيث الوحل غمرني واحتكمني بين قبضتيه المتينتين، لقد كانت الروح لا نصفها وكانت المضغة لا بضعها.. ماذا عن تلك الأحاديث الطويلة التي كنا نخوضها بين فترات الاستراحة في العمل..! وعن أكواب القهوة التي شاركناها سوية..! وعن هالة النقاش التي كانت تحيطنا ونحن نتحدث عن كتب تبادلناها فيما بيننا..!

كل زملاء العمل كانوا يعرفوننا حتى كراسي الباحة
حفرنا فيها أسماءنا وتواريخ جلوسنا عليها..
إنها كانت أنا وبفقدها فقدت نفسي..

الجزء الثاني

مذكرتي..

وأنا متجه هذا المساء صوب المنزل كعادتي إذا بي ألتقي برجل طاعن في السن يتكئ على عكازه..يمشي بكل هدوء ووقار جليلين رغم انحناءة ظهره، لم يلفتني هذا المنظر بقدر ما لفتني ذهابه إلى المسجد رغم خطواته البطيئة، فاقتربت منه لعله يحتاج مساعدتي لبلوغ مقصده.. لكنه رفض ودعاني للصلاة، شعرت حينها بالخجل لكوني أصلي تارات وأتركها تارات أخرى ولم يكن لي حينها سوى أن أدخل معه وأصلي، توضأت ووقفت بجانبه فاقترحت عليه الجلوس على الكرسي رفقا بحالته إلى أن فاجأني بالرفض مستدركا أنه لا يحب الصلاة إلا كما يصلي دائما منذ صغره، انتابني ضيق شديد في صدري واعتلاني العار عندما سمعت منه هاته الكلمات التي إن دلت على شيء فإنها تدل

على حبه وتعلقه بالصلاة والمساجد، كانت تلك أولى الصلوات التي تطمئن فيها روحي حتى وأنني نسيت يا مذكرتي ما كتبته لك ليلة أمس..

الجزء الثالث

..

بعدما خرجنا من المسجد تحدثت مع الشيخ فترة طويلة في الحديقة المجاورة له، لم أستشعر مرور الوقت إلى أن أذن المؤذن لصلاة العشاء فصلينا معا ودعاني إلى بيته، رفضت في البداية خوف أن أثقل عليه كاهله ولكنه أرغمني على مرافقته..

استضافني في بهو بيته المتواضع.. حصير عتيق ووسائد رطبة متفرقات هنا وهناك بشكل منظم..قناديل معلقة على جدران البهو وستائر منسدلة على نوافذ تقليدية بهية، وماهي إلا لحظات حتى أحضرت ابنته لنا العشاء، قبلت يد والدها واطمئنت على حاله ثم خرجت مستعجلة دون الالتفات نحوي، كانت تضع نقابا لا يظهر منها شيئا سوى عينيها..

ترسخت ابنته في ذهني واستعذبت تصرفاتها وحياءها

حقا..

أنا الآن في غرفتي أتصفح موقعا دينيا أثارت نقاشات الأعضاء فيه فضولي وانبهاري بمستواهم الفكري والديني الذي يتبنوه، منذ تلك السجدة التي سجدتها في المسجد وأنا متشوق لمعرفة المزيد عن دين الإسلام..

الجزء الرابع

مذكرتي..

ألم تلاحظي أنني لم أكتب حرفا عن ما عانيته، السبب الذي جعلني أفتحك وأكتب فيك لم أبح به لك أيضا، ألهذا الحد كان من الصعب ترجمة ألمي لأحرف تكتب أم أن توالي الأحداث والسعادات أنستني فيما كنت أود حقا أن أحكيه لك، أتعرفين شيئا ! ماعدت أشعر بالغصة في حلقي وماعاد الألم الشديد يتربع قلبي، وكأن كل شيء انتفضته في تلك السجدة، وكأن كل الألم الذي كنت أريد قوله أخرجته بين أحرفي وأنا أحدث الشيخ، تلك المواضيع الشيقة والأحاديث العطرة ونقاشات الأعضاء في الموقع ألهمتني أن ألتفت لجانب ما التفتّ إليه من قبل..

وفي يومي الجديد هذا ولحظات عزلتي التدوينية هاته معك وجدت سبيلا جديدا سأسلكه بمعية الله.. إنه

الجزء الخامس

مذكرتي..

يوم ربيعي مزهر والشمس في كبد السماء.. نور يتسلل من النافذة وينعكس على وجهي وأنا في مكتبي الجديد الذي انتقلت إليه اليوم إثر الترقية التي توصلت بها من مديري ليلة أمس في بريدي الإلكتروني، لا أدري حقا سبب توالي المفاجآت علي وكأن الله يجبر بقلبي ويربت برحمته على كتفي الذي أهلكته الخيبات وضربات الخداع المتوالية، كل زملائي في العمل قدموا لي التهاني وشجعوني بأقوالهم وإطراءاتهم الفكاهية على وظيفتي الجديدة هاته إلا هي.. لم تكن من بين الواقفين..

لكن وجودها كعدمه لم يعد يهمني حقا لأنني عرفت قدر نفسي وعززتها، تعلمت بعدها أمرا مهما نصحني به شيخي "من باعك بقرش بعه أنت بقنطار"..

ركزت طوال اليوم على عملي وبين فترة وأخرى كنت أفترش سجادتي وأصلي صلواتي كي لا يفوتني وقتها ثم أكمل مهامي..

وعند نهاية الدوام توجهت إلى المسجد حيث التقيت بشيخي فصلينا المغرب معا، وفي طريق العودة إلى المنزل أخبرني بأمر معلم بلغ من العمر عتيا، نصحني أن أزوره في نهاية الأسبوع لعلي آخذ منه قبسا أو يأتيني بأمر رشيد، فعقدت العزم وإني له لمن الزائرين..

الجزء السادس

مذكرتي..
وبعد يوم من السفر المشق وصلت لمنطقة المعلم الذي أوصاني بزيارته شيخي، رغم وعورة التضاريس وقساوة المناخ الثلجي الذي لم يذب بعد بالشمس الربيعية إلا أني كنت مستمتعا ومتحمسا لمقابلته بعد أن روى لي الشيخ قصته " أتدري يا بني آدم.. لقد درست أنا والشيخ لطفي مع بعض في الكُتّاب، حفظنا القرآن كاملا ونحن أبناء سبع وما لبثنا إلا أن بدأنا حفظ المتون سوية على يد شيخنا الابراهيمي أبو الحسن، صحيح أنه كان صارما باهت الملامح إلا أنه كان طيبا بشوشا في كثير من الأحايين، ختمنا المتون عنده وبدأنا بعدها في حفظ السنة النبوية، لكن لطفي كان أبرع مني حفظا وإتقانا فما كان يهنأ إلا بعد أن يتم ورده ويصلي صلاته ويقيم ليله ويصوم يومه ويحفظ ما استطاع من السيرة

إلى أن ختمها قبلي بأشهر عدة.. فسافر بعدها إلى تلك الجبال رفقة والده ومكث هناك إلى أن توفي أبوه، رغم ذلك لم يبرح بيتهما فأقام به وتزوج فيه وأنجب من زوجته بنين وبنات.. اذهب إليه يا بني وستجد عنده سؤلك ومقصدك"..

وماهي إلا لحظات حتى رمقت بيته بين صخور الجبل..

قد تستغربين يا مذكرتي مما أود فعله أيما استغراب لكني عزمت أن أطلب العلم عند العم لطفي، صحيح أنني ما كنت مواظبا على صلاتي قط لكن شيئا ما بداخلي لم يعد كما السابق حقا..

الجزء السابع

مذكرتي..

هذا أول يوم أقضيه رفقة العم لطفي بعيدا عن ضغوطات العمل وضوضاء المدينة، أيقظني في السحر قبيل الفجر وأعارني جلبابه الصوفي لأرافقه إلى مسجد القرية، لم أكن أسمع حسيسا حينها سوى صياح الديكة من هنا وهناك.. ونسمات عليلة تلفح وجهي فتوقظني من وسني، أذن المؤذن للصلاة فأقامها شيخنا.. باشرنا الصلاة وسمات الاطمئنان والسكينة تعلو محيا المصلين، خلت نفسي من فرط خشوعي معهم أن روحي انسلخت عن جسدي وحامت في أجل بقاع الأرض طهارة، إلا أن تكبيراته التي زلزلت كياني وسط الهدوء كانت تعيدني لرشدي، وبعد التسليم تفرغ كل لأذكاره وورده القرآني.. استغل الشيخ الفرصة وأزف إلي قاب قوسين أو أدنى، فقال لي " إني يا بني سأعلمك أمورا أنت جئت لتدركها

فهل ستستطيعها صبرا " رددت قائلا " والله يا شيخي لن أقول لك إلا ما قاله موسى للخضر ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا "..

فردد علي بضع كلمات والله لازال صداها يطرق عقلي طرقا ويختلج نياط قلبي " اسمع يا بني.. الإنسان لو أذنب ألف مرة في اليوم ليس له إلا الله، والشيطان قد يأتي إليك ويقول لك أنك أذنبت كثيرا.. لست أهلا لهذه الطاعة ولست أهلا لأن تأتي المسجد ولن يغفر لك الله.. لكن إياك والالتفات لأن رحمة الله أوسع وأكبر من ذنبك وإن الله يفرح بتوبة العبد أشد فرحا من التائب نفسه، أنت الآن بين يدي ولا أدري ما فعلته من قبل لكنني أرى فيك شيئا يدعوك للصلاح، فهل ستسطع على ما سألزمك به " " نعم يا عم بإذن الله "

الجزء الثامن

مذكرتي..

أتذكرين حديثي مع شيخي ومعلمي، والله ما انفك مني إلا بعد أن ضمني بكلامه العذب ونبش بدواخلي فزعزعها قائلا " اسمع يا بني.. إنهما أمران : استقامة وصلاة، فلا استقامة بدون صلاة ولا صلاة بدون استقامة، إنما هي عبادة فرضت في السماء بغير واسطة الملاك، وإنها لحرية بالارتقاء صعدا بعشاقها إلى منازل السماء، صلاتك يا بني حبل إن أديتها واتقيت الله فيها حق تقاته كان حبلا متينا لا تقطعه مخاطيف المعصيات التي تترنح بنا يمنة ويسرة، وإن تهاونت فيها وتركتها رشي الحبل فكان قطعه أسهل من قطع خيط طال عليه الأمد..

إنك يا بني بإسباغك للوضوء تمسح كل ذنب رأيته بعينيك ونطقته بلسانك.. وسمعته بأذنيك.. وفعلته

بيديك.. ومشيت إليه بقدميك.. حتى آخر قطرة تنزل منك، فكيف بالصلاة نفسها..

اسمع مني ما قاله الشيخ فريد الأنصاري عن الدنيا في إحدى كتبه القيمة (..تجري بكل قواك خلف متاعها، تحرق في سبيل امتلاكها كل الطاقات، وقد لا تصل وتشقى، وقد تصل؛ فما أن تضع يدك عليها حتى تصير مغلولة إليها.. فإذا بك – وقد سعيت لتكون مالكا – تصبح مملوكا لها، لا تستطيع الفكاك.. ثم تشقى أيضا)

فلا تركن يا بني للدنيا وأقم صلاتك واصطبر عليها { إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ }"

الجزء التاسع

مذكرتي..
أعتذر منك على غيابي المطول وهجراني المفاجئ لك، فلم يكن اختفائي هذا إلا لحاجة في نفسي كلفني بها شيخي لطفي، مرت أربعة أشهر مذ أن قدمت هاهنا، وهاقد أقبل الصيف يطل علينا بشمسه المشعة وهواءه العليل.. لم أتخيل حقا أن يطرأ علي هذا التغيير الذي تشعب دواخلي وتلجلج في صدري، وإني أبشرك يا مذكرتي أنني بدأت حفظ القرآن وختمت السور الطوال، وقد أوصاني معلمي قبل مغادرتي وصية ندية تفوح حكمة ونباهة، ترسخت في ذهني وغرست أوتادها بروحي " احذر الدنيا يا بني.. إنها خضرة حلوة، فقد تصيبك في قلبك وتستحوذ عليه فتسلب منك دينك، إياك والغفلة فإنها آكلة الحسنات" فضمني بعدها ضمة شديدة إليه كادت أضلعي إثرها تنصهر في جسده

المتين..
حقا إنني سأشتاق لهذه الوصايا الطيبة وحلقات الحفظ التي كانت كالبلسم على قلبي، وإنني ما شعرت قط بالحياة الهانئة مثلما شعرتها وأنا متربع مستمع لمحاضراته ودروسه ومواعظه، كالغيث هو؛ أينما حل أزهر من تحته اليابس الذابل..
إنني الآن وبعد أن ودعته وسلمت على أهل القرية صغيرهم وكبيرهم متجه نحو الديار.. وإن للشيخ أحمد لوحشة أشد من وحشتي للأصحاب، صحيح أنني سأفتقد كثيرا ما عشته هنا لكنني عاهدتهم بعودتي في أقرب الآجال..

الجزء العاشر

مذكرتي..
وأنا في طريق العودة بين التلال والبساتين المبهجة، إذا بصلاة الظهر تدركني.. أويت إلى ركن ظليل تحت شجرة زيتونة شامخة وصليت ما شاء الله لي من ركعات، كانت تلك الريح العليلة وكأنها تحفني برحمات مباركة وتهدأ من روع حرارتي.. اتكأت على جذع الشجرة وبدأت أتمتم تسبيحاتي وتهليلاتي للواحد الأحد، فغَمَرَت إحدى وصايا الشيخ لطفي ذهني وشغرته " أتدري يا بني شيئا.. يتقلب المرء الدهر كله بين ما يحرق روحه وقلبه.. تارة بين المعاصي وتارة بين الهموم والأدران الملوِّثة لصفوة البال.. عندما نخطأ في حق الله نحترق وعندما نفقد عزيزا ونحزن لهَمٍّ نحترق.. عندما لا ننال ما نبغ نحترق.. لكن الصلاة تطفئها وتغسلها فتكون بردا وسلاما على أرواحنا..

هذه الصلاة التي كنت قد هجرتها يوما أنت الآن مقبل عليها، ليس لقوتك ولا لرغبتك؛ وإنما شاء الله أن يرزقك بقبس من الهدى لتنير به عتمة دنياك وأخراك، اسمع ماذا يقول سيدنا وحبيبنا المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه: (من حافظَ عليها –أي الصلاة– كانت لَهُ نورًا وبرهانًا ونَجاةً يومَ القيامةِ) فلا تعد عيناك عنها يا بني..

أسمعت أبا العتاهية يقول :

أقِمِ الصلاةَ لوقتِها بشروطِها

فمِنَ الضّلالِ تفاوتُ الميقاتِ

وإذا اتّسعتَ برزقِ ربِّكَ فاتخذْ

منه الأجَلَّ لأوجهِ الصّدقاتِ..

الصلاة يا بني عماد الدين، فمن أقامها أقام الدين ومن هدمها هدم الدين.."

الجزء الحادي عشر

مذكرتي..
ولم تقف مخيلتي وإرجاع شريط لحظاتي عند هذا الحد وحسب، بل إن روحي عادت لتلك المواقف فانسلخت عني وحامت حول كلماته الرقراقة من جديد، لا تنفك حروفه ولا تبرح ذهني فأسقط صريعها، وأشتاق لاحتواءها لي كحنين جذع الشجرة لحضن محمد صلوات ربي وسلامه عليه، قال لي في إحدى وصاياه " ..وبعد سجودك.. فكأنما تُقبض الروح عن جسدك فيسكن ولا يتحرك ظاهرا، إلا أن هناك حياة نابضة بالتسبيح والدعوات لا يدركها إلا الساجد على أطرافه السبعة..
وليس كل من سجد ساجد، ألا شتان بين سجود الأحباب وسجود الأخشاب الذين يستعجلون استعجال السارق بما سرق..

-كيف ذلك يا معلمي؟
-إن من الناس يا بني من يسجد، وأنت تراه ساجدا، لكن الشرود يحول بينه وبين التبتل، فتراه لا يكاد يلمس الثرى حتى يكون قد رفع من سجوده، وهؤلاء من قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم (أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته)..
تلك الحركات والسكنات يا آدم في جوفها الكثير من الخضوع والتذلل لرب السماوات والأرض، من فاتحة إلى بضع آيات.. إلى ركوع.. ثم سجود فتسبيح.. وجلسة دعاء بين يدي الله، مرتفعا ثم منخفضا كفلك تجري في البحر.."
ثم وضع عكازته الخشبية فوق عاتقي وأتم حديثه قائلا " ..هنا يا بني.. هنا توضع ذنوبك وخطاياك.. على عاتقيك، وبعد كل ركعة وسجدة تتساقط منك كتساقط الأوراق في فصل خريفي بارد، فأطل فيهما ما استطعت، وأوي إلى ركنهما الشديد لتحيا وتزهر روحك من جديد.."

الجزء الثاني عشر

مذكرتي..

ها أنا ذا وصلت لبيتي بعد مسيرة كذا وكذا، وأول ما فعلته أني فتحت حاسوبي وأرسلت رسالة بريدية إلى مديري، ثم أكلت بضع لقيمات واتجهت صوب المسجد، فرمقت شيخي أحمد يمشي كعادته بخطاه المتباطئة منحني الظهر.. سمات الوقار والهدوء تراها جلية على مظهره المرتب وهندامه المشع نظافة، كانت له وحشة كوحشة زيد لمحمد صلى الله عليه وسلم، أدركته عند مدخل المسجد والمؤذن يؤذن لصلاة المغرب.. لمست يده المتمسكة بالعكاز فالتفت إلي قائلا " لقد عرفتك يا آدم من لمستك الطيبة هاته، كانت نفسها اللمسة التي لمستني إياها أول مرة.."

ألقيت عليه السلام فردها وعانقني بشدة وكأنه كان يعيش سنوات عجاف بدوني.. غمرتني كلماته وأدرف

يتفحصني ويتلمس وجهي والشوق باد من مقلتيه،
دخلنا فصلينا وعدنا أدراجنا إلى بيته كسابق عهدنا..
هذه المرة لم ألحظ وجود ابنته ولم أسمع اختلاجاتها
داخل البيت، لكنني حييت أن أسأله عنها كي لا يظن بي
ظنا ليس الذي أضمرته..
كان كل حديثنا عني وعن ما فعلته في القرية مع العم
لطفي، وفي كل مرة أروي له موقفا طريفا يفترُّ ضحكا
إلى أن تظهر نواجذه..
توجهت في الصباح إلى مقر العمل، فاستقبلني أصدقائي
بحفاوة ما عهدتها فيهم.. وكل يربث على كتفي
وينادديني بصاحب اللحية مازحا..
أطرقت بصري وغضضت طرفي ثم استأذنت مديري كي
أدخل عنده وأكلمه حول رسالة البارحة، فإذا بي أجدها
هناك جالسة على الكرسي المقابل لمكتب المدير، ألقت
التحية ماددة يدها لمصافحتي فاعتذرت منها وتركت
يدها معلقة دون أن أكترث لردة فعلها، حتى وإن كنت
على ما كنت عليه سابقا فما كنت لأمد يدي ليدها بعد ما
اقترفته في حقي من تزوير للمستندات باسمي،
خصوصا وأنها استغلت غيابي لتأخذ منصبي وتتلاعب
بأفكار المدير ضدي، ألاعيب اكتشفتها في وقت متأخر

من الزمن لكن أمر الله كله خير، ألقيت عليه التحية فبادرت مقتربا وأنا أطلب منه أن يقبل استقالتي، لم يكن له إلا أن قبِل طلبي، ثم قام بالإجراءات اللازمة لذلك، خرجت مستأذنا لأجمع أغراضي فلحقت بي مسرعة الخطى..

الجزء الثالث عشر

..

دخلت المكتب وجمعت أغراضي في صندوق ورقي وجدته عند سلة المهملات، فدخلت مستعجلة وهي تقول لي " آدم.. إسمع.. أنا أدري أنني أخطأت في حقك كثيرا لكن اعذرني.. تلوث قلبي بالطمع من أجل أن أوفر بيتا أستقر فيه فوجدتني غرقت في الألاعيب.. قاطعتها قبل أن تؤلف لي قصصا جديدة تشتت ذهني..

-إسمعي يا آنسة.. أنا لم أطلب منك تفسيرا ولا توضيحات، لست أنا من أحاسب البشر ولا أجازيهم إن أحسنوا، بل الله فالق الحب والنوى.. إن كنت تلحقينني لقول هذا الكلام فلا حاجة لي به، ولا طائلة منه ترجى بعد أن أفسدت قلبك.. وصلتِ لمبتغاك الذي كنت تخططين له وها أنت ذي نائبة المدير.."

خرجت من مقر العمل وكلي توكل على الله الذي بيده

رزقي.. ركبت السيارة ثم توجهت لأقرب مقر جمعية للأعمال التربوية والثقافية، فاقترحت عليهم أن يفتتحوا فرعا جديدا في القرية التي كنت فيها نظرا لحاجتهم الماسة لمثل هذه المراكز، فقبلوا طلبي بعد أن تيقنوا أني مؤهل لتسيير الأمور والإجراءات هناك بفضل الله ثم بفضل مستواي الدراسي ومقابلتي التي أظهرت لهم فيها كفاءاتي واندفاعي ورغبتي الشديدة لفعل ما أنا مقبل عليه..

وجدت ذاتي التي كنت قد دفنتها في العمل النظامي، وبدت أحلام جديدة تحلق في سمائي الواسعة، ونور الهداية ينقشع من بين الغيوم الممطرة.. فاستشعرته يكسر حواجز صدري لينير عتمته، ويشعل لهيب الجد والعمل من أجل أبناء تلك القرية المنسية..

استعجلت إلى بيت الشيخ أحمد مبشرا، فانهال علي بدعواته الطيبة وأحضانه المورقة قائلا " اللهم أصلحه.. اللهم أصلحه.. أتدري يا بني والله إني لذاهب معك إلى حيث أُمرت..

–لكن... ماذا عن ابنتك؟

–سأصطحبها معي أيضا.. قد كلفتها ليلة أمس بتوليد زوج ابن صديقي وهي الآن في البيت، سأخبرها أن

تجهز نفسها.. وأنت اذهب إلى بيتك وجهز أمتعتك..
-أابنتك مولدة يا عم؟
-نعم يا بني ألم تكن تدري ذلك؟
-ما لي برعيتك وبيتك يا عم بعالم، لم أسألك قط عنها خشية أن تنزعج أو يصيبك في نفسك شيء مني..
-لا عليك يا بني.. خيرا فعلت"

الجزء الرابع عشر

مذكرتي..

ها نحن ذا وصلنا للقرية بعد عناء سفر وثقل حمولة، لكننا اسمتعنا بالمناظر الخلابة ومياه الجداول المتناثرة هنا وهناك، أسقينا ظمأنا وارتوينا من ينابيعها المتدفقة، لم يكن العم لطفي يدري بقدومنا إلى أن فاجأناه بطرقنا الباب، بمجرد أن فتحها خرّ مندهشا واحتضن الشيخ أحمد بقوة خلتهما إثرها التصقا.. وأعينهما تفيض دمعا من الشوق الملتهب، لقد كانت حقا لحظة لانت فيها قلوبنا وذرفنا فيها دمع السعادة، استقبلنا بحفاوة في بيته المتواضع وكله لهفة للحديث مع الشيخ أحمد، فلم يريا بعضهما البعض منذ الصبا، جهز لكل واحد منا متكئا ولحافا خفيفا عند وسائد مطروزة بعناية، فوضعنا عندها أمتعتنا ثم جلسنا في الباحة لنتحدث مع العم لطفي عن الغرض الذي ساقنا إلى قعر بيته، وما إن علم

بالخبر استنار وجهه بابتسامة واسعة.. وتوسدت مقلتاه المتلألأتين سعادةً حُمرةَ وجنتيه البيضاوين، فنهض نهضة المشمر لزرعِ حقلٍ.. وطلب منا مرافقته إلى مركز القرية حيث هناك سنقوم بالإجراءات اللازمة لمباشرة تجهيز فرع الجمعية..

تداعا الخبر بسرعة بين الناس وفي البيوت، وراح كل يزورنا ويأتي من كل حدب وصوب لمساعدتنا ومد يد العون، رأيت فيهم كدّا وحماسا لم ترياه عيني من قبل، وبدأنا بتوفير المواد الأساسية لبناء مقر يناسب متطلباتنا وأنشطتنا الموازية التي سيتضمنها الفرع..

الآن وبعد أن عدت إلى هذه القرية لا أتخيل نفسي إلا فيها، وجدت بين أهلها الحب والإخلاص اللذان كنت قد حرمت منهما، وجدت بينهم دفء الأسرة والاستقرار الذي غاب عني دهرا منذ أن توفيا والدي..

الجزء الخامس عشر

مذكرتي..

مر الصيف بسرعة، وانتهت معه أشغال بناء الفرع.. بدأ وفد الأطفال والشباب يأتوننا من كل فج عميق وكلهم حماس لخوض غمار تجارب جديدة عنهم.. خلال هذه الفترة بأكلمها لم يبرحنا العم لطفي، وجاد علينا بنصائحه ودعواته التي تطيب النفس وتشرح الصدر لبذل قصارى ما في وسعنا، كان بين الفينة والأخرى يجذب الشيخ أحمد إليه فيتضاحكان تارات ويتباكيان تارات أخرى حنينا للماضي ولحظاته..

أتذكر إحدى أحاديثه معي ذات يوم قائلا " أتدري ما السعادة يا بني!.. السعادة ليست حلما و لا وهما، بل هي صلاة وقرآن وتفاؤل وحسن ظن بالله وصبر بغير إستعجال، هذه تركيبة عجيبة إن أدركتها فقد أدركت الحياة الطيبة، وإن أنقصت عنصرا من العناصر اختل

توازنها كذرة الماء تماما، إن سلبت منها ذرة الأوكسجين لم يعد هناك ما يكوّن الماء.. وها أنت ذا أصبحت صالحا لنفسك ولمن هم حولك، وتلك سجية من السجايا وعطية من العطايا، تلذذ بها ووجهها لله وحده لا شريك له..

الدين الإسلاميّ يا بني دين لا يقوم على الفرديّة أو الأنانيّة؛ وإنما هو دين اجتماعي.. أفراده يشدّون من أزر بعضهم البعض كالبُنيان المرصوص؛ لذلك حثَّ الإسلام على العمل خارج نطاق المنفعة والمقابل وهو العمل التطوعيّ الذي يبتغي به فاعله وجه الله تعالى.."

صلى بنا يوما صلاة المغرب في جماعة وكان كل رجال القرية حاضرون حينها، فألقى علينا درسا يخص الصلاة ما نسيت ذاك الدرس قط "الصلاة من العبادات المهمة التي أوصى بها الله عز وجل ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، لأنها الصلة الوحيدة بين العبد وربه، وكانت آخر وصايا النبي وهو في سكرات الموت: (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم)، فيا عباد الله عليكم بصلواتكم الخمس كونوا لها قائمين وبها مرتبطين، وعليكم بالبردين.. فمن صلاهما دخل الجنة..

إن اشتدت بكم الكرب فحلوا عقدها بالصلاة.. إن
تغشتكم هموم ضيقت عليكم صدوركم ففرجها
ستجدونه في الصلاة.. إن مسكم ضر ما أنتم عليه
بصابرين ففروا إلى الصلاة.. الصلاة يمكن لها أن تحدث
تغيراً مستمراً فيكم، في سلوككم، وفي جعلِكم أناساً كما
أنتم تريدون سراً أو علناً أن تكونوه.. اسمعوا ما قال
أحد الشعراء الأفاضل :
إن كان يجحدُها فحسْبُكَ أنه..
أضحى بربكَ كافراً مُرْتابا..
أو كان يتركُها لنوع تكاسلٍ..
غَطىَّ على وجهِ الصوابِ حجابا.."

الجزء السادس عشر

حقا يا مذكرتي..
بدأت أشعر أني شخص آخر لست الذي كنته قبل مجيئي إلى هذه الأرض المباركة، وكأنهم ألبسوني ثوبا أبيضا طهروه لتوه من دنس أصابه، فالتصقت نصاعته بجسد أنهكته المعاصي وتلوث بنجاسة الفتن..
صرت أَخجل من الله صدقا.. إذا نادى المنادي للصلاة وصدح بصوته، الصلاة خير من النوم؛ أُعجّل لتلبية النداء حبا بالله وتقربا منه..
أدري أنني أغيب عنك كثيرا يا مذكرتي فأتركك متشوقة ومتلهفة لمعرفة بقية القصة، لكن اعذريني.. فكثرة مشاغلي في الفرع وتجهيزي لبيتي شغرتا وقتي، فصرت أقلل عليك طقطقة القلم.. لكنني عدت الآن لأخط فيك حروفا أدري أنك كنت تتوقعين حصولها.. لكن؛ تمهلي علي لأروي لك أحداثها، فأنا

أعي جيدا كثرة تعلقك بالتفاصيل الصغيرة التي لا يلقي لها أحد بالا..
كنت في إحدى مساءات يوم أكتوبري أتسلل بين شجيراتِ وحقول القرية، أقطف أشهى الثمار بإذن أصحابها، وأشرب من ينابيع أراضيهم الرقراقة العذبة، فإذا بي أسمع حسيسا خلفي.. خلتها إحدى المواشي ترعى الحشائش اليابسة، لكنه كان العم لطفي.. تفاجأت لكونه يلحق بي في ذاك الوقت الذي يخصصه عادة لتلقين أحد أبناء جيرانه الضرير علم المتون، لكنه تعمد تتبع أثري لتتسنى له فرصة الخلوة بي والحديث معي.. لف يده حول رقبتي واضعا أطراف يده على كتفي ثم قال:
" – آسف على إرعابك بهذه الطريقة؛ لكنني وددت أن أحدثك في معزل عن أهل القرية حول موضوع يعنيك.. أدري أنني لست وصيا عليك ولا أنا بولي أمرك، لكنني سأحدثك كما يحدث الأب ابنه فهل تسمح لي بذلك يا بني؟
– حاشا لله يا عم.. بل أمري هو أمرك وكل ما

سينفعني في ديني ودنياي آتني به لعلي أسلك سبيل الرشاد، فأنت أدرى بمصلحتي مني.

– أنت الآن ولله الحمد والمنة رجل صالح.. تصلي صلاتك، وتقرأ قرءانك، وتصوم رمضانك، وتقوم بخير وفير وعظيم لهذه القرية التي كانت يوما منفية.. بدأت أيضا بتجهيز بيتك، وإنني أرى فيك كاتبا موهوبا وحافظا بارعا وعالما ملما.. لكنه ينقصك أمر تتم به نصف دينك يا بني.

– أتقصد الزواج يا عم.

– وهل غيره يا بني! بلى أقصده بعينه فما شأنك فيه إذن؟

– إنني يا عم معجب بابنة الشيخ أحمد مذ أن رأيتها لأول مرة في بيته، لكنني ما استطعت أن أحدثه عنها مخافة أن ترفض لكونها تعلم بحالي قبل التزامي..

– لا تقل هذا يا بني.. انسى الماضي لكي تستطيع المضي قدما، أنت الآن شخص مختلف عن ذاك الذي كان في السابق.. وإنني أجزم لك أنها لن ترفضك.

– وهل تعتقد ذلك يا عم؟

– نعم يا بني.. سأحدث الشيخ أحمد عن الأمر، لكن عدني أن لا تتجاوز معها حدود الله، إنك وإن خطبتها تضل غريبا عنها إلى أن تعقد عليها وفق ما يحب الله ويرضاه.."

الجزء السابع عشر

مذكرتي..
أنت أول من سأبشرهم بخطبتي لآيات ابنة الشيخ أحمد، وهذه أول مرة أيضا أنطق فيها اسمها وأكتبه بين أسطرك..
وإني لن أقول لك إلا ما قاله رسولنا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه " إني رُزقت حبها ".. تعبير بليغ وموجز في طياته من المودة والرحمة ماهو بحجم الجبال، هذا ما أشعر به حقا حيالها..
عندما كنت قد ذهبت لخطبتها؛ خلت أنني لن أستطيع النظر ولا رفع بصري إليها خجلا منها ورفقا بحالها الحيِيَة أيضا، لكن بمجرد أن دخلت ورفعت نقابها؛ وكأن الشمس سطعت في بهو البيت معلنة بداية يوم جديد، نظرتُ إليها فأسرّني هدوءها

ونظراتها الناعمة المتربصة بحركات يديها المتوترة، فتذكرت إحدى الآثار التي ألقاها العم لطفي يوما علي في إحدى محاضراته عن أحكام الخطبة قائلا (وعن سهل بن أبي حثمة أنه قال: "رأيت محمدا بن مسلمة يطارد بثينة بنت الضحال فوق أجران لها ببصره طردًا شديدًا، فقلت: أتفعل هذا وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا أُلقيَ في قلب امرئٍ خطبة المرأة فلا بأس أن ينظر إليها)..

تحدثنا قليلا وتناقشنا في مواضيع تخصنا ومنها ما يخص الفرع، فلاحظت انسجاما وتوافقا جليا بيننا، كنا نتبادل أطراف الحديث مع شيخيّ أحمد ولطفي أيضا، اللذان كنت أرمق غمزاتهما لبعضهما البعض بين الفينة والفينة..

تمت الخطبة، فألقى علينا الشيخ أحمد لأول مرة موعظة عن الزواج والحب بين الزوجين.. استأذن من حضرة العم لطفي ثم أدرف " أنظرا وأصغيا لقول

الله تعالى: {والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة، ورزقكم من الطيبات، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون}.. فالزوجة من النفس؛ لأنها بضعة من الرجل، والأولاد وأولاد الأولاد من اجتماع الذكور والإناث، والراحة النفسية ومتاع الدنيا هو في الحب الحقيقي بين الزوج وزوجته، وبين الأب والأم وأولادهما، وبين الأبناء وآبائهم وجدودهم، فكم يسعد الجد بأحفاده سعادة لا تعدلها سعادة الطعام الجيد والشراب اللذيذ.." فقاطعه العم لطفي قائلا "لم يحن بعد وقت الحديث عن الأحفاد يا أحمد ما بك مستعجل؟".. تقهقرا ضحكاً ونسيا أن آيات من بين الجالسين، فلم يكن للمسكينة إلا أن هربت كما تفعل دائما..

الجزء الأخير

مذكرتي..
هذه آخر صفحاتك، والتي سأختم فيها قصة هذا الشاب الثلاثيني الذي منذ أن اشتَرَاكِ من مكتبة الحي وهو يدون فيك كل ما يحصل له..
لقد عِشتِ معي تفاصيل عديدة، وتقامستُ معك وفيك نصائح ووصايا سأحفظها لأبنائي وبناتي..
أما الآن فإنني سأحمل عنك عبء أسراري، وثقل همومي وأفكاري، وأستجمع منك ذكرياتي ولحظاتي الثمينة هاته لأهديها وأتقاسمها مع رفيقة الدرب..
لكن لا تظني يا مذكرتي أنك لم تكوني وفية، بل إنك كنت أخلص من المخلصين نفسهم، إلا أن أوراقك قد تتبالى وتتساقط عنك فتتيه بين أقدام العابرين..
أما آيات فوالله لن تتلف تفاصيلي أو تضيعها، بل

إنها ستحفظها في جوف قلبها؛ كذاك المسافر الذي يؤَمن أخاه على متاعه وبيته خشية أن يتداركه الأجل قبل موعد عودته، فيحفظُ له أهله كأنما يحفظ نفسه..

النهاية..
بثينة بولعيش